تجليات الفقر في شعر أبي الشمَقمَق

د. عباس علي المصري*

*أستاذ مساعد/ قسم اللغة العربية والإعلام/ الجامعة العربية الأمريكية/ جنين/ فلسطين.

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى استجلاء صورة الحياة الاجتماعية السائدة أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي كما يصورها أبو الشمقمق؛ شاعر الدولتين ومخضرم العصرين، حيث انعكست في شعره تجليات الفقر التي عاشتها الطبقة الكادحة والمسحوقة التي ما فتئت تنادي بالمساواةِ مع الأغنياء، أو – على الأقل – بأن يحظوا بحياةٍ كريمةٍ تليق بالإنسان.

وقد ركز – تبعاً لذلك – على محطات الفقر التي أخذته بضروبها إلى مناح عديدة من ضروب القول، ونواح متعددة من أساليب الخطاب التي بدت في جوانب منها مسفةٍ إلى درجة الفحش في القول كي تتناسب وحجم المعاناةِ أو الفظاعةِ التي يحياها فقراء الناس وضعفاؤهم.

Abstract:

This research aims to picture the social life prevailing during late Umayyad and early Abbasid periods as described by Abu- Achammaqmaq, a poet and a veteran of the two eras. His poetry reflects the upheavals of poverty of the desperate working- classes which constantly called for a life of equality and decency.

Abu- Achammaqmaq focused on the stations of poverty that have taken him to many ways and methods of discourse that seemed in some of its aspects to reach the point of obscenity to match the scale of the suffering or horror being experienced by the poor and the powerless.

مقدمة:

على الرغم من عناية الدارسين المحدثين للعصر العباسي ، إلا أن جُلَّ اهتمامهم قد انصرف إلى الشعراء المشهورين **كبشار بن برد** ، **وأبي نواس** ، **والمتنبي** ولكن هناك شعراء لم ينالوا حظاً وافراً من الدراسة؛ لا لخمول ذكرهم ، بل لغلبة سمعة أولئك المشاهير. ولا تزال المكتبة العربية بحاجة إلى دراسات تفرد لغير هؤلاء المشاهير ، وكانَ أبو الشمقمق واحداً من بين هؤلاء الشعراء المغمورين الذين عاشوا في الظل ، لكنه– خلافاً لمعظمه– كان – على الدوام – يرفض الاعتراف بهذا الواقع بكل ما أوتي من قوة ،وما أتيحت له من سبل ، مع ما تهيأ له من سلاطة اللسان وفحش القول ، فسعى إلى بسط مأساته التي مثلت مأساة طبقة اجتماعية مسحوقة ، حُرمت من أبسط مقومات الحياة أو العيش الكريم ، فاقترن فيه الحسُّ المُرْهَفُ بالوقاحة ، والذكاء بالسخف ، والجِدُّ بالهَزل ، مشكلاً بذلك صورة بدت مميزة بمثل هذه السمات المتناقضة والتي صبغت العصر كله، فأمكن أن يوصف شعر « أبي الشمقمق « بأنه نتاجها أو تمثيل لها . ويحسن قبل أن ندخل في تفاصيل تصوير أبي الشمقمق لحياته وتداعياتها ، أن نتوقف عند جوانب من حياته .

هو أبو مُحَمّد مروان بن مُحَمّد ، وأبو الشمقمق لقب أُطلق عليه؛ لأنه كان عظيم الأنف أَهْرَتُ الشِّدْقين [١] وأبو الشمَقمَق بصريّ المنشأ والمربى ، خراسانيّ الأصل ، من موالي الأمويين ، ولد سنة (١١٢ هـ) ، واتصل بخالد بن برمك وبابنه يحيى وبيزيد بن مزيد الشيباني ، وأدرك خلافة المأمون ، يقال إنه كان قبيح المنظر ، وأضاف إلى قبح شكله خبث لسانه ، فتحاماه الناس وازورّوا عنه ، فلم يفتحوا له أبوابهم إلا قليلاً ، وسرعان ما كان الباب الذي يفتح في وجهه يغلق من دونه ، فعاش محروماً فقيراً إلا من بعض ما كان يسقط إليه من قائد أو أمير ، أو من بعض زملائه الشعراء.

تجّول في مدن العراق كافة وعاد كسيراً ، لم يجد من يُقبل عليه من الشعراء رفاقه فيسلقهم بلسانه؛ ليعطوه النزر القليل الذي لا يكاد يسد رمقه ، وكانت فيه خشونة وجفوة ، مع نزق وطول لسان ، تعجل في اللوم والهجاء ، فساءت حاله واشتد ضيقاً وبرماً بالناس ، وعاش يتجرع الفاقة والبؤس ، حتى قالوا إنه كان يلزم بيته في أطمار بالية وثياب خَلِقه، متوارياً عن الناس إلا من أنس إليه [٢] .

يُعَدُّ هو وأمثاله من أفراد الطبقة البائسة في المجتمع العباسي ، لم يطالبوا بالمستحيل بل كانوا ينادون بالمساواة مع غيرهم من أبناء المجتمع ، ويسعون للحصول على وسائل الحياة الضرورية التي تكفل لهم البقاء والحياة الكريمة ، ويظهر ذلك في رائيته التي يشير فيها إلى أمنياته في الحياة معدداً مطالبه البسيطة [٣] .

وكأن ما قاله بيان مرفوع إلى السلطات الحاكمة ، يبين فيه ما تفتقده طبقة مهمة وأساسية في المجتمع ، إذ يطلب أرغفة الخبز ، وبضعة من الماعز والطيور ، وقليلاً من الخمر، وثوباً ثميناً جميلاً ، وبغلةً فتية يستعين بها على السفر ، وبيتاً له جيران كرماء ، ورفيقاً حليماً ، وبعض المال حتى يسعفه في الشدّة والأزمات ، والشاعر يتخيل هذه الأمور تخيلاً وكأنه يستبعد وقوعها ، لأنه لم يعتد عليها ، وهي بالنسبة إليه الأمل بالخلاص من المسغبةِ والمشقة ، يقول: (السريع)

مُنـــايَ من دُنيـــايَ هاتـــي التي … تَسْلَـــحُ بِالـــرِّزق علـــى غَيـــرْي
الجَـــردقُ الحاضـــرُ مـــع بُضْعَـــةٍ … مـــن ماعـــزٍ رَخْـصٍ ومـــن طـــيْرْ
وجـــرةٌ تَهْـــدرُ مـلآنـــةً … تحكـــي قـــراةَ القَـسِّ في الدَّيْـــرَ
وَجُبَّـــةٌ دكْنَـــاءُ فَضْفاضَـــةٌ … وطيلســـانٌ حَسَـــنُ النَّيْـــرَ
وَبَغْلـــةٌ شهبـــاءُ طيـــارةٌ … تطـــوي لي البلـــدانَ في السَّـــيرِ [٤]

فهو يعدد ما يريده وما يتمناه ، وهو على علم أن الأمر ليس سهل المنال ، وبخاصة حين يسهب في تفصيل الأمنية من حيث خصائصها وتأثيرها ، مما يجعلنا نلمس من قراءة أشعاره أنه يشترط في الأمنية صفات تناسب فقره وحاجته ، وهذا يعود لشدة الفقر الذي يعيشه ، وللحرمان الذي سيطر على الطبقة البائسة التي كان واحداً منها ، فلم يكن أبو الشمقمق متحدثاً عن نفسه فقط بل عن كل أفراد طبقته الفقيرة البائسة المحرومةِ في المجتمع العباسي ، مثيراً بذلك قضية خطيرة تدين السلطات الحاكمة آنذاك كما تدين أهل اليسر والثراء ، وجاء أسلوبه سهلاً واضحاً يجري بيسر على الألسنة ، فجعل شعره حديث الناس ، يردده الصبيان والغلمان والسوقة ، فلطالما مسّ قضاياهم وأفصح عن معاناتهم[٥].

ولعل أبا الشمقمق في هذا المقام يُعَدُّ أول من أدخل إلى الأدب العربي صورة السنّور الذي هجر بيت صاحبه الفقير ، والفأر الذي يعبث في البيتِ المقفر [٦] ويبدو أن خيبة آمالهِ وانقطاع أحلامه ، هي التي أدت إلى مثل هذا الضمور الفني ، ومن ثم إخفاقه .

موقف النقاد من شعره:

ومع ذلك فقد تفاوت النقاد في حكمهم على تميزه أو إبداعه، فهم بين مؤيد ومعارض، مؤيد يسعى لإنصافه ، فيظهره شاعراً فذاً غلبه الدهر ، وساعد الدهر عليه وفحش لسانه وسوء أدبه .. ومعارض يجد في التقليل من شأنه والحط من مكانته ، فما هو سوى هاوٍ أو عابثٍ لاهٍ ، متطفل على الشعر ، لم يحسن دروبه أو يتقن دروبه فطاح به وصيره أضحوكة

الخاصة والعامة على السواء وهو خلاف تفاعل في وسط علماء الأدب وأرباب الصناعة النقدية؛ لكون شعره يجمع بين الجيّد والرديء ، حتى جعله الأصمعي– على سبيل المثال– مثالاً للرداءة والضعف ، فقد عرض بيتاً من شعر للنابغة الجعدي ، ثم قال مُعَرّضاً بأبي الشمقمق: لو أن أبا الشمقمق قال هذا البيت لكان رديئاً ضعيفاً» [٧] ، والجاحظ لا يقل حماساً عن الأصمعي في التقليل من شأنه ، فهو يسوق لنا قصة نفهم منها «أن الناس كانوا يظنون أنه من الخسارة أن يجمع شعر أبي الشمقمق بخط عجيب ، في جلد ثمين»[٨] ، لكنّ المرزباني كان أكثر تسامحاً وربما أكثر تعاطفاً معه حين وصف شعره «بأن أكثره ضعيف ، وربما ندر له البيت» [٩] ، وقد لاحظ المبرد « أنه ربما لحن ويهزل كثيراً ويجد فيكثر صوابه» [١٠] ، إلا أن هناك من الكتاب والأدباء والنقاد من سانده وأيده في أشعاره ، فهذا ابن المعتز يرى شعره «كله من النوادر [١١] ، ويجعله ابن عبد ربه في عداد «المحارفين الظرفاء ، كما يرى فيه شاعراً عظيم الموهبة جنى عليه الإخفاق المتواصل» [١٢] .

إنّ اختلاف النقاد في حكمهم عليه بين مؤيد ومعارض ، دليل واضح على أنه كتب أشعاراً فيها من الملاحة والقباحة بحيث تجاري آراء قوم، وتغاير آراء قوم آخرين ، إلا أنها في مجملها تعطي له صورة شاعر عبّر عن قضيته الإنسانية بأسلوب سهل تناقلته العامة والخاصة على السواء ، كل بحسب موقعه أو حجم اهتمامه وتأثره . فقد عبّر عن هذه الشريحة الاجتماعية، وفي الوقت نفسه، حافظ على علاقاته وصلاته مع الشعراء والأدباء ، مشكلاً معهم جسراً نَقَلَ من خلاله أفكاره وهمومه وتطلعاته التي ظلت – كما هي حال الطبقة المسحوقة – مكبوتة ومغلولة .

علاقته بشعراء عصره:

جاءت علاقاته مع شعراء عصره لتلوّن إخفاقه المتواصل في الحصول على عطف الكبراء، لذا كان يجد نفسه مضطراً إلى التقاط فتات موائدهم ، مع ما يبعث ذلك في نفسه من سخط عليهم وتبرم بهم ، وتذمر من أحوالهم ورغبة جامحة في الإطاحة بهم والقضاء عليهم أو الإسفاف بهم ، ومن أبرز علاقته مع شعراء عصره ، تلك العلاقة المدهشة مع بشار بن برد ، فقد كان هذا الأخير يعطي أبا الشمقمق في كل سنة مائتي درهم ، جزية اتقاء لشره وفحش قوله ، فأتاه أبو الشمقمق مرة فقال له: « هَلُمَّ الجزية يا أبا معاذ ، فقال: ويحك أجزية هي! قال: هو ما تسمعُ ، فقال له بشار يمازحه: أنت أفصحُ مني؟ قال: لا ، قال: فأعلمُ مني بمثالب الناس؟ قال: لا؛ قال: فأشعر مني؟ قال: لا ، قال: فلِمَ أُعطيك؟ قال: لئلا أهجوك، فقال له: إنّ هجوتني هجوتك؛ فقال له أبو الشمقمق: هكذا هو؟ قال: نعم ، فقال: ما بدا لك ،

فقال أبو الشمقمق:

(الرّجز)

إني إذا ما شاعرٌ هجانيَهْ　　وَلجَّ في القولِ له لسانيَهْ
أدخلته في أستِ أُمّهِ علانيه　　بشار يا بشارُ يا ابن الزانيه (١٢)

وأراد أن يقول: «يا ابن الزانية ، فوثب بشار فأمسك فاه ، وقال: أراد **والله** أن يشتمني ، ثم دفع إليه مائتي درهم ، ثم قال له: لا يسمَعَّن هذا منك الصبيانُ يا أبا الشمقمق» (١٣) .
فهو لا يجد حرجاً أو ضيقاً في أن يستخدم ألفاظاً بذيئة في سبيل تحقيق مقاصده مِنْ ذلك قوله في هجاء بشار بن برد ليبتز منه مالاً:

(مجزوء الرمل)

هلّلينه هللينه　　طعن قثّاة لتينه
إنّ بَشّارَ بن بردِ　　تيسٌ أعمى فيٍ سفينَه (١٤)

وقوله – أيضاً– حينما جاء إلى بشار يشكو إليه ضيقه ، ويحلف له أنه ما عنده شيء، فقال له بشار: **والله** ما عندي شيء يغنيك ولكن قم معي إلى عقبة بن سلم ، فقام معه فذكر له أبا الشمقمق وقال: هو شاعر وله شكر وثناء ، فأمر له بخمسمائة درهم فقال له بشار:

(مجزوء الكامل)

يا واحِدَ العَربِ الذي　　أمْسى وَلَيْس له نظيرُ
لو كانَ مِثْلكَ آخرٌ　　ما كانَ في الدنيا فقيرُ (١٥)

فأمر لبشار بألفي درهم ، فقال له أبو الشمقمق: نفعتنا ونفعناك يا أبا معاذ ، فجعل بشار يضحك (١٦) .

ومن نوادره مع أبي العتاهية قصته التي حصلت حينما اجتمع مع أبي نواس في بيت ابن أُذين وكان بين أبي العتاهية وبين أبي الشمقمق شرٌّ ، ودخل أبو العتاهية فنظر إلى غلام عندهم فيه تأنيث « لين وتخنيث» فظن أنه جارية ، فقال لابن أُذين: متى استطرفت هذه الجارية؟ فقال: قريباً يا أبا اسحاق ، فقال: قل فيها ما حضرَ؛ فَمَدّ أبو العتاهية يده إليه وقال:

(السريع)

بَسَطْتُ كَفِّي نَحْوَكُمْ سائِلاً　　ماذا تَرُدُّونَ على السّائِلِ (١٧)

فلم يلبث أبو الشمقمق حتى ناداه من البيت:

(السريع)

نَرُدُّ في كَفِّكَ ذا فَيْشَة تَشْفِي جوىً في استكَ من داخلِ (١٨)

فقال أبو العتاهية: شمقمق والله . وقام مغضباً

صور الفقر في شعره:

مست أشعاره التي نظمها في الحديث عن فقره وبؤسه ، قلوب الناس ومشاعرهم، كما لم تمسها أشعار أخرى؛ لما تمثله من وصف دقيق للفقر المدقع في بيته وطعامه وشرابهِ ولباسهِ من جهة ، وللحالةِ النفسيةِ المزريةِ وما رافقها من تغلب البراغيث والفئران والسنانير ، وما إلى ذلك ، على بيتهِ من جهةِ أخرى ، حيث آلت حالته– بسبب ذلك كلهِ– إلى فقر متواصل ، وحرمان دائم لا يكاد ينفك عنه ، أو يجد خلاصاً منه .

وقد صور ضيق الحياة وقسوتها أبلغ تصوير ، فيروى أن أحد إخوانه دخل عليه يوماً فرأى سوء حاله ، فأراد أن يخفف عنه ، فقال له: أبشر أبا الشمقمق ، فإنه رُوي في بعض الحديث أن العارين في الدنيا هم الكاسون يوم القيامة ، فقال ساخراً: إن كان والله ما تقول حقاً لأكونن بزازاً يوم القيامة ، ثم أنشأ يقول:

(مجزوء الرمل)

أنا في حالٍ تعالى اللـ ... ـه ربّي أيِّ حالِ
ليس لي شيءٌ إذا قيـ ... ـلَ لمنْ ذا؟ قلت: ذا لي
ولقد أهْزِلْتُ حتى ... مَحَتِ الشَّمْسُ خيالي
ولقد أفلسْتُ حتى ... حَلَّ أكلي لعيالي
من رأى شيئاً مُحالاً ... فأنا عَيْنُ المحالِ (١٩)

فهو يصور بأسلوبه الساخر حالته التي وصل إليها ، ويذكر أنه لا يملك شيئاً يُنْسب إليهِ ، أو يُرَدُّ إلى اسمهِ ، ليس هذا فحسب ، بل افتقر بيته إلى أدنى ما يملكه الإنسانُ من طعام وشرابٍ حتى أصبح نحيفاً ، لا يكاد يظهر خياله ، وهو على هذه الحالة ، يجعل أكله محللاً لعيالهِ؛ لأنه لم يستطع أن يُوَفِّر لهم ما ينقذهم من الموت .

ويقف مراراً ليصوّر سوء حظّه ، وحالة العدم التي تلازمه ، فكأنّ الأرزاق تهرب من أمامه ، حتى ليجفّ البحر الذي يخوضه ، ويستحيل الدرُّ في يده حصىً وزجاجاً ، ويصبح

الماء العذب ملحاً أُجاجاً لا يسوغ شرابه ، وهذه المعاني تدلّ على حالة نفسية يائسة ، يقول:

(الخفيف)

لــو ركبتُ البحــارَ صــارتْ فجاجاً ... لا تــرى في متونهــا أمْواجــاً
فلــو أنّي وضعــتُ ياقوتــةً حَمْــ ... ــراءَ في راحتي لصــارتْ زُجاجا
ولــو أنّي وَرَدْتُ عَذْبــاً فراتــاً ... عــادَ لا شكَّ فيه ملحــاً أُجاجا [٢٠]

ويقول أيضاً:

(الوافر)

فمنــزلي الفضــاءُ وسقــفُ بَيْتــي ... سمــاءُ الله أو قِطَــعُ السّحــاب
وَلاَ خِفْــتُ الإبــاقَ [٢١] علــى عبيدي ... ولا خفْــتُ الهــلاكَ علــى دوابي
ولا حاسبــتُ يومــاً قهرمــاني [٢٢] ... محاسبــةً فأُغلِظَ في حسابي [٢٣]

ولم تكن حال هذا الشاعر لتخفى على أحد، فهو وإن لم يَقُلْ شيئاً، فإنَّ منزله خيرُ معبِّر عن ذلك، وقد ترك للناس أن يتعرفوا إلى بيته ، من خلال ذكر ملامح لا توجد في بيوت الآخرين ، ليوصلهم في نهاية المطاف إلى الفضاء الرّحب الذي يشاركه في ملكيته كُلّ البشر، وليس بوسع أبي الشمقمق أن يضع له باباً؛ فبدايته قي السماء ونهايته في الأرض ، ولهذا فإنّ في استطاعة النّاس جميعهم الدّخول إليه ، والخروج منه متى شاءوا . ويذكر أنه لا يملك العبيد والدّواب ، ولا القيّم بشؤون النفقة؛ ليحاسبه ويقف على عمله.

وما أراده الشاعر من خلال هذه النقلة السريعة والساخرة ، لم يكن مجرد التعبير عن سوء حاله فحسب ، إذ لا حاجة لأنْ يقول: إنّه لا يمتلك الدّواب والعبيد والقهرمان بعد أنْ ذكر أنّه لا يملك حتّى بيتاً يأوي إليه ، لكنّه أراد أنْ يعقد مقارنةً ساخرةً ليعبّر بها عن سخطه على الوضع الذي يعيشه المجتمع في ذلك العصر. ففي حين لا يملك أبو الشمقمق شيئاً فإن غيره يملكون الكثير . ويبالغ أبو الشمقمق في التعبير عن سوء معيشته ، وقد يكون من الإسراف والمبالغة أن يجعل شراب أولاده بول الحمير ، يقول:

(مجزوء الكامل)

إنّ العيــالَ تركتُهُــمْ ... بالمصْــرِ خُبْزُهُــمُ العُصَــاره
وشرابُهُــم بَــولُ الحمــا ... ر مزاجُــهُ بــولُ الحمَــاره
ضجّــوا فقلــتُ تَصبَّروا ... فالنُّجْحُ يُقْــرَنُ بالصَبّاره [٢٤]

إن تصوير الفقر لدى الطبقات الدنيا في المجتمع العباسي لم يقتصر على أبي الشمقمق وحده ، بل نجد شعراء الكدّية قد اهتموا بتصوير مشاعر الطبقات الفقيرة البائسة التي لم

تخرج اهتماماتها في الحياة عن توفير لقمة العيش ، وما يتصل بها من أمور بسيطة ، وخير من يمثل هذه الطبقة أبو فرعون الساسي [٢٥] وله غير قطعة يصور فيها بؤسه وبؤس أولاده الذين يعيشون حياة صعبة ، لا يجدون فيها طعاماً أو لباساً ، ويعرض حاله بأسلوبٍ ساخر يثير في نفس القارىء الضحك والإشفاق معاً ، يقول:

(الرمل)

ليسَ إغلاقي لبـاب أنّ لـي فيه مـا أخشى عليه السَّرقا
إنماأُغلقه كي لا يرى سـوءَ سوءَ حالي من يجوب الطّرقا
منـزلٌ أوطنهُ الفقـر فلـو دخـلَ السـارق فيـه سُرقا
لا تـراني كاذبـاً في وصفه لو تراه قلت لي: قد صَدقا [٢٦]

فأبو فرعون الساسي يداري نفسه عن الناس حتى لا يروا بيته الذي يخلو من الطعام والشراب ، ومن أقل ما يملكه البسطاء ، ويسّوغ سبب إغلاق بيتهِ بأنه ليس فيه ما يُغري بالسرقةِ ، ونلمح سخريته في قلب الحال أو عكس الصورة ، فلو دخل السارق بيته ، لطمع أهلُ بيتهِ في سرقتهِ .

إن تصوير الشمَقْمَقْ لفقره لا يقل أهمية عن تصوير حياته بتفاصيلها ، فهذا بيته الذي يصوره بأنه أدنى من الكوخ ، إنه العراء ، أو الأرض الممتدة ، وسقفه السماء العالية دون باب أو سرير ، وتلك هي المأساة ، أن لا يجد ما يؤويه في الوقت الذي تتعالى فيه القصور الشاهقة ، وتقوم الدور الرائعة يقول:

(الوافر)

بَـرَزْتُ مـن المنـازلِ والقبـاب فلـم يَعْسُـرْ علـى أحـدٍ حجابي
فمنـزلي الفضاءُ ، وسقـفُ بَيْتي سمـاءُ الله أوَ قِطَـعُ السَّحـاب
فأنـت إذا أردتَ دخلـتَ بيتـي علـيَّ مسلَّمـاً مـن غـير بـاب
لإني لم أجـد مِصـراعَ بـابٍ يكونُ من السحـابِ إلى التراب [٢٧]

إنّ مبالغة الشاعر في وصف بيته ترسم طبيعة الحياة التي كانت سائدة في ذاك العصر ، وتكشف – إلى حد بعيد– مدى الألم والمعاناة التي تعيشها الطبقات الفقيرة من ذل وحرمان وبؤس وفقر مدقع ، فهو لا يمل من تكرار هذه المعاني ، لأن الجوع يلح عليه وعلى عيالهِ ، فينسيه غيرها ، وتصبح هذه الكلمات زفرات يخرجها باستمرار ، يقول:

(الخفيف)

ولقـد قلـتُ حـينَ أقْفَـرَ بيتي — مـن جـراب الدقيـق والفَخَّـارَهْ
ولقـد كانَ آهـلاً غـير قَفْـرِ — مُخَصبـاً خَـيرُه كثـيرَ العمـاره
فـأرى الفارَ قـد تَحَنَّـبنَ بيتْي — عائـذات منـه بـدار الإمـاره
ودعـا بالرحيـلِ ذبَّـانُ بَيْتـي — بـين مقصوصَـةٍ إلى طيّـاره (٢٨)

ليس هذا فحسب ، إنما لا يقتني حتى ما يكسو به السرير الذي ينام عليه ، ولا يملك من المتاع إلا حصيرة وبعض الأشياء البسيطة ، ومنها قوله:

(البسيط)

لو قد رأيتَ سريري كنت ترحَمُني — اللهُ يعلـمُ مالـي فيـه تلبيسُ
والله يعلـمُ ما لـي فيه شائبةٌ — إلا الحصيرةُ والأطمـارُ والرِّيس (٢٩)

أما عن صورته في ما يعيش عليه الإنسان ، فقد صور لنا مسبغة عياله وإملاقهم ، وهو في الواقع يصور الطبقة الكادحة في المجتمع البغدادي ، التي كانت تعمل وتكدح لتملأ الطبقة المترفة بطونها ، بينما تعيش هي في الضنك والشقاء ، وأقصى أمنياتها أن تجد الخبز والأرز وهي على استعداد لأن تسعى إليهما، ولو كانا في مكان شاهق ، ولكن أنى لها ذلك وقد أهلك الجوع طاقاتها وإمكاناتها ، ومن طريق تصويره لذلك ، قوله:

(السريع)

مـا جمـعَ النـاسُ لدُنياهُـمُ — أنفـعَ في البيـتِ مـن الخُبـزِ
والخبـزُ باللحـم إذ نلْتَـهُ — فأنـت في أمـنٍ مـنَ التّرْزِ
وقـد دنـا الفطْـرُ وصبيانُنَـا — ليسـوا بـذي تَمْـرٍ ولا أرزِ
وذاك أن الدهـرَ عاداهُـمُ — عـداوة الشاهـينِ للْـوَزِّ
كانـت لهـم عنـزٌ فـأوديْ بها — وأجدبـوا مـن لَـبَنِ العَنْـزِ
فلـو رأوا خبـزاً علـى شاهـقٍ — لأسْرَعـوا للخبـزِ بالجَمْـزِ (٣٠)

فأحلامه تبدأ من الخبز وتنتهي باللحم ، ويعد الخبز واللحم سبيل الأمن من الهلاك له ولعياله ، ومع ذلك لم تتحقق أمانيه ، فعياله انتظروا وقت الإفطار ، وليس أمامهم ما عند غيرهم من الأرز والتمر ، وقد وقف الشاعر على أهم المناسبات في حياة الأطفال ، وهي شهر رمضان ، ليحرك إحساساً بالمشاركة الوجدانية ، وبالرغم من الحزن الذي تثيره هذه الصورة ، إلا أنها تشتمل على سخرية واضحة من الحياة التي لم تعطهم أبسط الأشياء . أما عن صورة البؤس التي وصفها في شعره خير وصف ، فهي حديثه عن البراغيث ولدغها

لجسدهِ ، وهذا مظهر آخر من مظاهر معاناتهِ ، ومما قاله في ذلك:

(المنسرح)

يا طــولَ يومــي وطــولَ لَيْلَتِه فَلْيَهْــنَ بُرغوثُــهُ بِجَذْلَتِــه
قد عَقَــدَتْ بَندها علــى جَسَدي واجتهــدت في اقتِســامِ جُمْلَتِه [٣١]

فالألم ألمان ألم في طول النهار والليل ، وألم في قَسْوَة مرارة الألم نفسه الذي أحدثته البرغوثة في جلده حينما لم تجد في البيت ما تأكله ، حتى إنّ جلده ليصعب اقتسام قطعة لحم منه لعدم وجودها أصلاً فيه ، وقوله أيضاً في الموقف ذاته:

(المنسرح)

يا طــولَ يومــي وطــولَ لَيْلَتَيْهَ إنَّ البراغيــثَ قــد عَبثْــنَ بيَــهْ
فِيهِــنَّ بُرْغوثَــةٌ مُجَوَّعَــةٌ قــد عَقَــدَتْ كَفَّهــا بِفَقْحَتَيَــهْ [٣٢]

إلا أن الخصام من شدة الجوع وميله إلى الدعابة والسخرية سرعان ما يشتد أواره بين الشاعر والبراغيث ، فيقول في ذلك:

(الطويل)

ألا رُبَّ برغــوثٍ تركــتُ مُجَــدَّلاً بأبيضَ ماضي الشّفرتين صقيلِ [٣٣]

أما رحلة بؤسهِ في وصف حالته مع الفأر ، فقد قال فيها:

(مجزوء الكامل)

أخــذَ الفــأرُ برِجْلــي جَفَلــوا منهــا خِفافي
وسراويــلاتِ ســوءٍ وتبــا بــينَ ضِعــافِ
درجــوا حــولي بِزَفْــنٍ وبِضــربٍ بالدِّفــافِ
قلــت: ما هــذا؟ فقالوا: أنــتَ مِنْ أهــلِ الزِّفافِ
ساعــةً ثمَّــتَ جــازوا عــن هــوايَ في خِلافِ
نقــروا إسْتــي وباتــوا دون أهلي في لحافِ [٣٤]

رحلة مضنية ، حيث لا تجد الفئران ما تتمناه ، فتصول وتجول حول صاحب البيت ، وكأنها زفة عرس لم تجد فيها ما تأكله إلا شبح جسم الشاعر ، الذي يخيف صاحبه ، فهو في حالة يندى لها الجبين ، وتقشعر لها الأبدان ، مما جعله يقول في موقف آخر:

(مجزوء الرمل)

نـــزلَ الفـــأرُ ببيتـــي رُفقَـــةً مـــن بعـــد رُفْقـــهْ
حلقـــاً بعـــد قطـــارٍ نزلـــوا بالبيـــت صَفْقـــه
ابـــن عرس رأســـ بيتي صاعـــداً في رأســـ نبقـــه
سيفـــهُ سيـــفٌ حديـــدٌ شَقَّـــهُ مـــن ضلْـــعِ سلْقَـــه
جاءَنـــا يطـــرقُ بالليـــ لِ فَـــدَقَّ البـــابَ دَقّـــه
دخـــلَ البيـــتَ جِهـــاراً لم يَدَعْ بالبيـــتِ فلقه (٣٥)

أبدع الشاعر في هذا الوصف للفأر بخاصة حين دخوله البيت متسلحاً بسيف من حديد آملاً في أن يجد طموحه ، إلا أن شده الفقر التي يعيشها الشاعر جعلت الفأر يدخل البيت جهاراً نهاراً يصول ويجول في البيت لعدم وجود رادع يردعه عن فعلته ، أو صده عن طريق قد سلكها داخل البيت للبحث عن قوت يعتاش منه .

كما نجد الشاعر قد أكثر من ذكر الحديث عن البراغيث والسنّور ، ولذعها لجسده وخلو منزله من كل شيء حتى هربت منه السنانير والجرذين ، تفتش عن مكان آخر تجد فيه بغيتها ، فيرتد إلى نفسه حزيناً باكياً عندما لا يجد الفأر الذي اعتاد صيده ، فيفارقه إلى غير مآب ، فينشئ في ذلك قصيدة ساخرةً يتحدث فيها عن هذا المنظر قائلاً:

(الخفيف)

ولقـــد قلـــتُ حـــين أحجـــرني البَرْ دِ كمـــا تُحْجِـــرُ الـــكلابُ ثُعَالَـــهْ
في مبيـــت مـــن الغَضـــارة قفـــر ليســـ فيـــه إلا النـــوى والنُّخَاله
عَطَّلتَـــهْ الجـــرذانُ من قلَّـــة الخيـ رِ وطـــارَ الذبـــاب نحـــو زُبَالـــه
هاربـــاتٍ منـــه إلى كل خِصْـــب حـــين لم يَرْتَجِـــينَ منـــه بُلالـــه
وأقـــام السنّـــوْرُ فيـــه بشَـــرٍّ يَسْـــأَلُ اللهَ ذا العُلـــى والجَلالـــه
قلـــت لمـــا رأيتُـــه ناكسَـــ الـــرأ ســـ كئيباً يمشي علـــى شَرِّ حاله
ويـــك صـــبراً فأنت أهـــل السنانيـ رِ وعلَّلْتُـــهُ بحُسْـــنِ مقَالَـــه
ثُـــمَّ ولىَّ كأنَّـــهُ شيـــخُ ســـوءٍ أَخرجوه من مَحْبَســـٍ بِكَفَالَه (٣٦)

إن هذه القصيدة– رغم سخريتها اللاذعة– تحمل قضية اجتماعية كبرى ، وأزمة معيشية خانقة ، تعانيها طبقة بائسة في المجتمع ، تلك قضية حق الإنسان في العيش الكريم في ظل دولة تحقق رغد العيش للمواطنين كافة دون تمييز ، ويبدو أن هذا كان مفقوداً في بعض فترات العصر العباسي، أو أن هذا هو ما ينطبق على ما كان عليه أبو الشمقمق وأمثاله ، « وتعتبر هذه القصيدة رسالة موجهة إلى الخلفاء وأولي الأمرِ ، لكي

يلتفتوا إلى مصير الشعب ومصالحه الحيوية بعيداً عن الأنانية» (٣٧) وبذلك فقد كان يخلط تصوير تعاسته وتعاسة أمثاله من أفراد الشعب بالفكاهة ، مما جعل الناس يقبلون على شعره إقبالا شديداً ، حتى يروي الجاحظ في حيوانه: « أن منهم من كان ينفق على كتابته نفقة واسعة ، متخذاً له الجلود الكوفية الثمينة» (٣٨) .

ولا يمل أبو الشمقمق من تكرار هذه المعاني ، لأن الجوع يلح عليه وعلى عياله فينسيه غيرها ، وتصبح هذه الكلمات زفرات يخرجها باستمرار ، يقول مخاطباً سنوراً:

(الخفيف)

وأقــام السنَّورُ في البيــتِ حَوْلاً ما يــرى في جوانب البيــت فاره
ينفضُ الرأسَ منه من شدَّة الجُو ع وعيشــن فيــه أذىً وَمَــرَاره
قلــتُ له لمــا رأيتُه ناكســ الرَّأ سَــ كئيبــاً في الجوف منــه مراره
ويــك صبراً فأنتَ مــن خير سنّو ر رَأَتْــهُ عينــاي قَـطُّ بحَــاره
قــال: لا صبرَ لي وكيــف مُقامي وَســطَ بيــتٍ قَفْرٍ كجــوف الحمارهَ
قلت: ســِرْ راشــداً إلى بيت خانٍ مُخْصِــبٍ رحلُهُ كثّــيرِ التجاره (٣٩)

إن متعة الذوق الأدبي أن يسقط الشاعر همه وألمه ويعيش مع هموم الآخرين وكأنه أذاب ما عنده في واقع مرير يصعب الحديث فيه ، وتزداد المتعة حينما ينشيء حواراً مع سنور قد أقام معه حولاً كاملاً يصف حالته ، فيرشده إلى حلول يجد فيها ملاذاً لهذا السنِّور مّما هو فيه متناسياً همه الأساسي الذي سبب ما آلت إليه ظروف هذا الطائر ، فيحاول تصبيره على الجوع ونقص الأكل وشدة الألم والمعاناة ، ويتعاطف مع حالته النفسية وإذلاله فيطلب منه الصبر ، إلا أن صبر السنور قد نفد طيلة هذه الفترة ، فلم يبق أمامه إلا الرحيل إلى مكان فيه خصب وماء وغذاء .

إن شكوى الشاعر من ضيق الحال وقلة المال لم تمنع قاموسه اللغوي من الحديث عن الركوب ، حيث يشكو من افتقاره لدابة يركبها ، ويقارن حاله بحال غيره ، فغيره عند الرحيل يُقَرّب إليه دابته ، في حين يقرب هو إليه نعله ، ويبدو أن هذا المطلب من الأماني الصعبة عند هذه الفئة من الناس ، فيقول:

(الخفيف)

أتــراني أرى مــن الدَّهْــر يومــاً ليَ فيــهَ مَطيَّــةٌ غــيرُ رجْلــي
كُلَّمَــا كُنْــتُ في جميــعِ فقالوا قَرِّبُــوا للرَّحيــلِ قَرَّبْــتُ نَعْليقــد
حيثمــا كنــت لا أخلــفُ رحــلاً مــن رآني فقــد رآني ورحلــي (٤٠)

إنها نوع من المفارقة التي تقوم على التفاعل بين الشاعر والمتلقي ، لكنها تنحصر في إطار ضيق لا يتعدى مقصد الشاعر وهدفه ، لوجود قرائن المفارقة اللفظية ومراميها التي توحي بذلك .

ومع ذلك ، فلا ينسى أبو الشمقمق أن يشكر الله– عزّ وجلّ– على سوء حالهِ راجياً فَرَجه فيقول:

(المجتث)

الحمـدُ لله شكـراً   أمشي ويركبُ غَيْري
قـد كنتُ آمُلُ طِرْفاً   فَصِرْتُ أرضَى بعَيْر
لم تَرْضَ نفسي بهذا   يا ربِّ منْكَ لخَيْرِ [٤١]

إن شدة الفاقة التي يمر بها الشاعر ، جعلته يحمد الله أولاً ويرضى بنعله بديلاً عن أي مطية تنقله في سفره وترحاله مع المفارقة اللفظية والمعنوية بين الاثنين ، فهو يختار نعله لعدم توفر ما يعينه على الركوب ، حتى ولو كان غير مقتنع بما توفر لديه من بدائل للركوب فقد وطّن نفسه على كل شيء بسيط؛ لحرمانه من أقل حاجات الإنسان اليومية في المأكل والمشرب والملبس .

وصف البخل والبخلاء:

إنَّ السخرية من البخل تناقض الفخرَ بالجودِ الذي تعوّده العرب ، ولم يمدحوا بمثله ، حتّى إنّهم عُرفوا بنار القرى [٤٢] لذلك كانت بعض كتب النقد القديمة ، تجعله والمديح في باب واحد تحت اسم «باب الأضياف والمديح» ، كما فعل أبو تمام في حماسته . والهجاء بالبخل قديمٌ أيضاً ، ولا بدّ أنه واكب المدح بالجود، ولم يكن الشاعر الجاهلي أو الإسلامي ، يتجاوز في هجائه بالبخل معاني محددة ، تعتمد أساساً على نقض معاني الجود المألوفة[٤٣].

ولعل كتاب (البخلاء) للجاحظ من أهم المصادر التي أتت على تصوير هذه الصفة ، فقد وردت فيه عشرات من القصص التي تصور بأسلوب متهكم ، بخل أهل مرو وخراسان، وبخل من اشتهر من العرب بالحرص على جمع المال . وتشكل هذه القصص مصدراً خصباً لدراسة المجتمعات وعاداتها ،وطبائعها وأحزانها ، ومما قيل في أهل مرو على سبيل السخرية:

(الطويل)

مياسيرُ مَرو مَن يجودُ لضيفه   بكَرْشٍ فقد أمسى نظيرا لحاتم
ومن رش باب الدار منهم بغَرْفَةٍ   فقد كملتْ فيه خصالُ المكارمَ
يسمّون بطنَ الشّاة طاووسَ عُرْسِهِمْ   وعند طبيخ اللحم ضَرْبُ الجماجمَ
فلا قدّس الرحمنُ أرضا وبلدةً   طواويسهُمُ فيها بطونُ البهائمِ [٤٤]

وجاءت سخرية هذا الشاعر المجهول من أهل مرو في حديثه عن طبيعة كرمهم ،فهي في أقصى حالاتها لا تصل إلى أكثر من الجود بكرش الشاة ،وإن بلغت هذا الحد ، فقد وصلوا، بناء على موازينهم، إلى منزلة حاتم الطائي ، ولذلك لا يؤمِّلُ منهم أكثر من هذا .

وقد دفع ضيق الحياة الفقراء إلى النظر في أموال الخلفاء والأمراء والأغنياء وسؤالهم، وأصيب كثيرٌ منهم بخيبة أمل ،وارتدّ غاضباً ، وعبّر عن سخطه بالهجاء الساخر، ومن الخلفاء الذين سخر الشعراء من بخلهم الخليفة العباسي المنصور ، إذ يروى عن الأصمعي أنه قال [٤٥] : «لقي المنصور أعرابيا بالشام ،فقال: أحمد الله يا أعرابي الذي رفع عنكم الطاعون بولايتنا أهل البيت ، فقال الأعرابي: إن الله لا يجمع علينا حشفا وسوء كيل ولايتكم والطاعون» ، وقال العسكري: كان المنصور في ولد العباس كعبد الملك في بني أمية في بخله ، رأى بعضهم عليه قميصا مرقوعا ،فقال: سبحان من ابتلى أبا جعفر بالفقر في ملكه ، وحدا به سلم الخاسر [٤٦] . فطرب حتى كاد يسقط من الراحلة ، فأجازه بنصف درهم ،فقال لقد حدوت بهشام فأجازني بعشرة آلاف. فقال: ما كان له أنْ يعطيك من بيت المال يا ربيع فما زالوا حتى تركه على أنْ يحدوَ به ذهاباً وإياباً بغير شيء».

ويروى أنّ المنصور ألزم رعيتة أن تلبس القلانس الطوال ، وكانوا يعملونها بالقصب والورق، فعبّر أبو دلامة عن استيائة من هذه الخطوة ،إذ كان هو وغيره من الشعراء ينتظرون من الخليفة الجديد زيادة في العطاء لا زيادة في طول القلانس، يقول ساخرا:

(الطويل)

وكُنّا نرجّي من إمام زيادةً فزاد الإمامُ المصطفى في القلانس
تراها على هامِ الرّجالِ كأنّها دِنانُ يهودٍ جُلِّلت بالبرانسِ [٤٧]

حديث أبي الشِمَقْمَقْ عن البخل والبخلاء:

ويكثر أبو الشمقمق من ملاحقة البخلاء وتصوير ما يظهر من تصرفاتهم ، وما تخفيه نفوسهم من مشاعر وأحاسيس، فمن صوره اللطيفة أنه جعل من كفي مهجوّه قُفْلاً ، ولتأكيد شّدة بخله ، أضاع المفتاح ، وأوصلَ الحّداد إلى حالة من اليأس في إصلاح الأمر، ليؤكّد أنّه لا أمل يُرجى من هذا البخيل ، يقول:

(السريع)

كفّاهُ قُفْلٌ ضاعَ مِفْتاحُهُ قد يَئِسَ الحَدّادُ من فَتْحِه [٤٨]

ويصر على احتجاب ابن البخْتكان [٤٩] عن الناس حتى لا يقربه أحد ، فيؤاكله ويقف

على بابه حاجبٌ مات هُزْلاً بسبب الجوع ، ومن أجل إكمال الصورة الساخرة المضحكة أشركَ أبو الشمقمق النّاس في إتمامها ، فهم يسألون من القادم؟ فيقال: لا أحد، ومن الواقف أمام الباب فيقال: الحاجب ، وهذه المشاركة أضفت على الصورة حركةً وحيويّة ، بحيث يستطاع تخيلها بسهولة، يقول:

(الطويل)

وَمُحتَجِب والنّاسُ لا يقربونه — وقد مات هُزْلاً من ورا الباب حاجبُهْ
إذا قيل مَن ذا مُقبلاً ، قيل لاحدٌ — وإنْ قيل من ذا خَلْفَهُ قيل كاتبُهْ [٥٠]

ويسخر أبو الشمقمق من بخل سعيد بن سلم [٥١] ، فمن يطلب عطاءه مثل مَن يطرق في حديد بارد ، ويؤكد معنى العبث والاستحالة في تفصيله ، فهذا المهجو لو ملك كل البحار وطُلِبَ منه مقدار شربةٍ للطهور ، لرفض واقترح التيّمم بالصّعيد ، يقول:

(الكامل)

هيهاتَ تضرِبُ في حديدٍ باردٍ — إنْ كُنْتَ تطمعُ في نوالِ سعيدِ
والله لو ملكَ البحارَ بأسرها — وأتاهُ سَلْمٌ في زمانِ مُدُودِ
يبغيه منها شَرْبةً لطَهوره — لأبى ، وقال: تيمَّمْ بصعيدِ [٥٢]

ويقف على معاناة ضيف سعيد بن سَلْم ، فهو يتضور جوعاً ، وقد وجد على رغيفه عبارة (سيكفيكهم **الله** ما بدا ضوءُ نجم) ، فسعيد يريد أن يكتفي ضيفه بالتأمّل في ضوء النجم ، بجامع الشكل بين الرّغيف والنجم ، يقول:

(الخفيف)

فانتَهَيْنَا إلى سَعيد بن سَلْم — فإذا ضَيْفُه من الجُوعِ يَرْمي
وإذا خبزه عليه سيكفيـ — ـكَهُمُ الله ما بدا ضَوْءُ نَجْمِ [٥٣]

ويطلب من عمر بن مساور الكاتب أن يجود ولو بحجر، ثم يفترض أنه جاد بحجر ، ليلاحقه بسخريته واستهزائه ، فإذا ما اجتمع الصبيان لكسر الجوز به ، كُسِرَ الحجرُ وبقي الجوز فحتّى حجره الذي قدّمه لم يكن ذا نَفْع أو قيمة ، يقول:

(الرمل)

أنا بالأهوازِ جارٌ لعُمَرْ — لعَظيمٍ زعموا ضَخْمِ الخَطَرْ
لا يُرَى منهُ عَلَيْنا أثَرٌ — لا يكونُ الجودُ إلاّ بأثر
إنْ تكُن وُرقُك عنّا عجِزَتْ — يا أبا حَفْصٍ فجُدْ لي بحَجَرْ
يَكْسِرُ الجوْزَ به صبيانُنا — وإذا ما حَضَرَ اللّوزُ كُسِرْ [٥٤]

ويصوّر بخل جعفر بن أبي زهير ، فيجعل الماء عنده سراباً ، وخبزه عزيزاً، لا تصل إليه الأيدي ، وكأنّه معلّق في السحّاب ، يقول:

(الوافر)

شرابُـكَ في السـّراب إذا عَطِشْنَـا		وخبـزُكَ عنـد مُنْقَطعِ الـتُّراب
رأيـت الخبـزَ عـزَّ لديْـكَ حتّـى		حسبتُ الخبزَ في جَـوِّ السّحابِ
ومـا روّحْتَنَـا لِتَـذبَّ عنَّـا		ولكـنْ خِفْتَ مُرْزِئـةَ الذُّبابِ (٥٦)

ولأبي الشمَقْمَقْ أشعاركثيرة يذم فيها البخل والبخلاء،ويهزأ بهم؛ لأنه كان فقيراً محروماً،فضنّوا عليه بما لهم وحرموه عطاءهم،فرسم لهم صوراً مزرية تدل على بخلهم فقد ذمّ بخيلاً اسمه (أوفى بن منصور) فسخر منه سخرية لاذعة،حيث شبه خبزه بالفاكهة،وأن كفيه من شدةِ بخلهِ قد شُدا بالمسامير،فلا يستطيع فتحهما،وفي ذلك يقول:

(البسيط)

مـا كنـتُ أحْسَـبُ أنَّ الخبـز فاكهةٌ		حتى نزلـتُ على أوفى بـن منصور
يَبْسُ اليديـنِ فما يسطيـعُ بسطَهما		كأنَّ كفّيْـه شُـدًا بالمسامـير (٥٧)

ويأتي أبو الشمقمق بصورة مستوحاة من واقع الحياة عند غير الأسوياء من المجتمع، فيشبه إعراض حارثة بن الأصم عن إكرامه بإعراض المرأة السيئة الخلق يقول:

(الخفيف)

جِئْتُـه زائـراً فأعرضَـ عَنّـي		مِثْل إعراضِ قَحْبَـةِ سُوَسيّة (٥٨)

ويتساءل في موضع آخر كيف يتسرب البخل إلى نفسية صاحبه ، ومن أين يتعلمه ، ويذكّر بكرم العربي ، وكأنّه يستنكر أنْ يكون البخلُ موجوداً في طباع العرب ، وهذا في قوله:

(مجزوء الخفيف)

لمّـا سألتُـكَ شَيْئـاً		أبْدَلْـتَ رُشْـداً بِغَـيِّ
ممّـن تعلَّمـتَ هـذا		أنْ لا تَجـودَ بِشَـيّ
أمـا مَـرَرْتَ بِعَبْـدِ		لِعَبْـدِ حاتِمِ طَـيِّ (٥٩)

الأوزان الشعرية:

يتبين لنا من خلال المقطوعات الشعرية التي تقدم ذكرها في البحث، والتي ذم فيها الشاعر بخلاء عصره،أو صوّر فيها فقره وبؤسه،أنه صاغ أشعاراً على الأوزان الآتية:

السريع: خمس مقطوعات، والرمل: خمس مقطوعات، والخفيف: ست مقطوعات،

والوافر: ثلاث مقطوعات، والطويل: أربع مقطوعات، والكامل: ثلاث مقطوعات، والبسيط: مقطوعتان، والرجز: مقطوعة واحدة ، والمنشرح: مقطوعتان.

إن صياغة أبا الشمقمق هذه الأشعار في الأوزان الخفيفة المجزءة حتى يسهل حفظها وذيوعها وانتشارها،وهذا ما يريده الشاعر من أشعاره التي عبّر بها عن فقره وسوء حالتهِ.

الأساليب الشعرية:

التمس أبو الشمقمق شتى الأساليب للتشهير ببخلاء عصره،والحط من قيمتهم،وذلك بتهكماته اللاذعة التي أضحت علامات مميزة في أشعاره،ويلاحظ من خلال مقطوعاته التي ذمّ فيها البخل والبخلاء،أو وصف فيها فقره وبؤسه،**أن الشاعر لجأ إلى الأساليب الآتية**:

أُسلوب الفحش والإقذاع، وأُسلوب المفاضلة والموازنة، وأُسلوب الإيجاز، وأُسلوب التصريح والتعريض ، والأسلوب الساخر.

نتائج البحث:

يمكن القول إن أبا الشمقمق قد عاش فقيراً ومات فقيراً ،وقد عبّر عن فقره بكل ما أوتي من مقدرة شعرية أظهرت ـ إلى حد بعيد ـ مفارقة العصر ، وبؤس الطبقة الفقيرة التي مثّلها خير تمثيل . **ولعلّ من نافلة القول أن نسجل- هنا- بعض الملاحظات التي تتعلق بأسلوبه ولغتهِ ومعانيه والتي كانت على النحو الآتي**:

١. صاغ أبو الشمقمق أشعاره من دم البخلاء ليسهل حفظها وذيوعها وانتشارها

٢. هذه الأشعار التي نظمها الشاعر في ذم البخلاء،أو في وصف فقره وبؤسه،هي في حقيقتها نوع من السخط على مثالب المجتمع وعيوبهِ،وما بالأفراد من خِصالٍ مذمومة،وهي لاذع للحياة الاجتماعية في كثير من جوانبها.

٣. يهدف الشاعر من خلال اشعاره إلى خلق مجتمع فاضل،يسوده العدل والمساواة،وحياة تتكامل فيها صورة المحبة والتسامح والكمال،فأشعاره هي بناء وتقويم لهؤلاء البخلاء، ولكل القيم المستهجنة.

٤. سادت أشعاره روح شعبية قوية خالية من الجزالة والرصانة .

٥. ملأ أهاجيه الفحش والألفاظ البذيئة ، حتى نرى شاعراً مثل بشار المعروف بخبث لسانه يخشاه خشيةً شديدة .

٦. يعد أبا الشمقمق أول من أدخل إلى الأدب العربي صورة السِنَّور الذي هجر بيت صاحبه الفقير .

٧. صور خير تصوير فقر الطبقة العامة الكادحة في المجتمع من خلال تصويره لإملاق عياله

٨. كان أسلوب الشاعر سهلاً واضحاً يجري بيسر على الألسنة ، ولذلك كان شعره حديث الناس ، يردده الصبيان وأفراد الطبقات الشعبية؛ لأنه يمس قضاياهم، ويتحدث عن معاناتهم .

٩. كانت أشعاره ناجمة عن إحساس بالقهر والظلم ، فدخل في أغراضه مباشرة دون أدنى التزام بأي لون من ألوان المقدمات المعروفة ، كذكر الأطلال أو النسيب وما يتلوه من وصف الناقة والصحراء والرحلة .

١٠.لم يتأنق في أشعاره ، وابتعد عن القوالب الغريبة ، ونظم أشعاره على الأوزان القصيرة.

١١.أكثر الشاعر من الأشعار الشعبية التي اتسمت بخفتها،وسرعة حفظها وذيوعها،وأبدع فيها أيما إبداع،واتخذها سلاحاً لطعن البخلاء وذم البخل،لتكون أبعدوقعاً،وأقوى أثراً في نفوس البخلاء؛ لتحقيرهم وتهوين أمرهم،وتصغير شأنهم.

١٢.جنح أبو الشمقمق في لغته إلى بساطة التعبير،وسهولة الألفاظ،ووضوح المعاني،فالشاعر يوجه أشعاره إلى عامة الناس لتعرف ما يقول،وتدرك ما يريد، فتضم صوتها إلى صوته،وتتنبه إلى فساد أوضاعها، وتحاول تقويمها وإصلاحها.

١٣.تميزت أشعاره بالإيجاز ،فقد جاءت على شكل مقطوعات قصيرة،تشبه السهام السريعة النافظة في قوة تإثيرها في المهجو،وسرعةايذائها له،كما صيغت في ثوب خفيف الروح،سهل الألفاظ،يعتمد على الصورة الهزلية المضحكة.

الهوامش:

١. أي متسع،فيقال هَرَتَ الشيءَ هَرَتاً شَقَّهُ ليوسعه،والشِمَقْمَقْ في اللغة الطويل أو النشيط،وفي التركية: شِمَقْمَقْ (بكسر الشين وفتح الميمين) تعني المدلل ينظر المعجم الوسيط: مادة هَرَأ

٢. ضيف ، شوقي: العصر العباسي الأول ، دار المعارف ، مصر ، ط٦ ، ١٩٩٦: ٤٣٦– ٤٣٧، غرنباوم ، غوستاف فون: شعراء عباسيون ، تحقيق إحسان عباس ومحمد يوسف نجم، مكتبة دار الحياة ، بيروت١٢١: ١٩٥٩ ، عطوان ، حسين: الشعراء الصعاليك ، ط دار المعارف ، مصر: ٩٢– ٩٣ ، نور الدين ، حسن جعفر شعر التمرد في الأعصر العباسية ، ط١ ، دار رشاد برس ، بيروت ٣٠٨، ٢٠٠٣: .

٣. نور الدين ، حسن جعفر: شعر التمرد في الأعصر العباسية: ٣٠٧ .

٤. غرنباوم ، غوستاف فون: شعراء عباسيون: ١٥٥ .

٥. نور الدين ، حسن جعفر: شعراء التمرد في الأعصر العباسية: ٣٠٨ .

٦. غرنباوم ، غوستاف فون: شعراء عباسيون: ١٢٦ ، وينظر في أشعاره: ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣، ١٤٦ ، ١٤٩ .

٧. المرزباني ، أبو عبد الله محمد بن عمران: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، تحقيق علي البجاوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٥: ٦٥ .

٨. الجاحظ ، عمرو بن بحر: الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط١ ، مطبعة مصطفى البابلي ، مصر ، ١٩٣٨: ١/ ٣١ .

٩. المرزباني أبو عبد الله محمد بن عمران: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء: ٦٥

١٠. البغدادي ، أحمد بن علي الخطيب: تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، ط دار الكتاب العربي ، بيروت ، د. ت: ١٣/ ١٤٦ ، والمبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد: الكامل عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، الفجالة ، مصر ، ١٩٦٥: ٣/ ٦– ٧ .

١١. ابن المعتز ، أبو العباس عبد الله بن محمد ، طبقات الشعراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٦: ١٦٠ .

١٢. ابن عبد ربه ، أبو عمر أحمد بن محمد: العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ط٢ ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة: ٢٥٦/٤ .

١٣. غرنباوم ، غوستاف فون: شعراء عباسيون: ١٥٢ .

١٤. الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين: الأغاني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٢، ١٩٩٧: ١٣٦/٣ .

١٥. غرنباوم ، غوستاف فون ، شعراء عباسيون: ١٥١.

١٦. بشار بن برد ، ديوانه: شرح وترتيب مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٣: ٥٣٥ .

١٧. الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين: الأغاني: ١٢٤/٣ .

١٨. أبو العتاهية ، ديوانه: تحقيق شكري فيصل ، دار الملاح للطباعة والنشر ، دمشق ط١، ١٩٦٤ : ٦١٧

١٩. غرنباوم،غوستاف فون، شعراء عباسيون: ١٤٥ .

٢٠. المصدر نفسه: ١٤٦ .

٢١. المصدر نفسه: ١٣٢ .

٢٢. الإباق: الهرب.

٢٣. القهرمان: القائم بشؤون النفقة .

٢٤. غرنباوم،غوستاف فون، شعراء عباسيون: ١٣١ .

٢٥. المصدر نفسه: ١٤٠

الكدية: الاستعطاء وحرفة التسول

٢٦. لطبقة الفقيرة ، كان من أفصح الناس وأجودهم شعراً،وأكثرهم نادرة ينظر ترجمته ابن المعتز،أبو العباس عبد الله بن محمد: ٤٢٦

٢٧. ابن المعتز ، عبد الله بن المتوكل: طبقات الشعراء المحدثين: ٤٢٦ .

٢٨. غرنباوم ، غوستاف فون ، شعراء عباسيون: ١٣١ .

٢٩. المصدر نفسه: ١٣٨ .

٣٠. المصدر نفسه: ١٤١ .

٣١. المصدر نفسه: ١٤٠ .

٣٢. المصدر نفسه: ١٣٢ .

٣٣. المصدر نفسه: ١٥٣ .

٣٤. المصدر نفسه: ١٤٦ .

٣٥. المصدر نفسه: ١٤٢ .

٣٦. المصدر نفسه: ١٤٣– ١٤٤ .

٣٧. المصدر نفسه: ١٤٩ .

٣٨. نور الدين ، حسن جعفر: شعراء التمرد في الأعصر العباسية: ٣٠٦ .

٣٩. ضيف ، شوقي ، العصر العباسي الأول: ٤٤٠ .

٤٠. غرنباوم ، غوستاف فون ، شعراء عباسيون: ١٣٨– ١٣٩ .

٤١. غرنباوم ، غوستاف فون ، شعراء عباسيون: ١٤٥ .

٤٢. غرنباوم ، غوستاف فون ، شعراء عباسيون: ١٣٦ .

٤٣. نار القرى: هي نار الضيافة ، توقد لاستدلال الأضياف بها على المنزل وكانوا يوقدونها على الأماكن المرتفعة لتكون أشهر ، وربما أوقدوها بالمنديل الرطب ، وهو عطر ينسب إلى مندل ، وهي بلدة من بلاد الهند ونحوه مما يتبخّر به ليهتدي إليه العميان وهذه النار عندهم أجلّ سائر نيرانهم ، ينظر الألوسي ، محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، شرح وتصحيح ، محمد بهجت الأثري ، ط دار الكتب العلمية بيروت ، ج ١ ، ٦٩– ٧٠ .

٤٤. خريس ، حسين: حركة الشعر العباسي في مجال التجديد بين أبي نواس ومعاصريه ، مؤسسة الرسالة ، دار النشر ، د. ت: ١٨٩/٢ .

٤٥. الجاحظ ، أبو عثمان عمر بن بحر: البخلاء ، حقق نصه وعلق عليه طه الجاحري ط ٨ ، دار المعارف ، مصر ، د. ت: ٢٨١– ٢٨٢ .

٤٦. السيوطي ، جمال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ٢٦٥: ١٩٥٢.

٤٧. هو سلم بنُ عمرو مولى بني تيْم بنِ مُرّة ، ثم مولى أبي بكر الصديق ، رضوان الله عليهم ، شاعر مطبوع متصرّف في فنون الشعر ، من شعراء الدولة العباسية ، وهو راوية بشار وتلميذه ، وعنه أخذ ، وعلى نمطه ومذهبه قال الشعر ، وسبب تلقيبه الخاسر قيل: لأنه ورث من أبيه مصحفاً ، فباعه واشترى بثمنه طنبوراً ، وقيل: بل خلّف أبوه مالاً فأنفقهُ على الأدب والشعر ، وقال بعض أهله: إنك لخاسر الصفقة . فلقّب بذلك . ينظر: الأصفهاني ، أبو الفرج علي ، الأغاني: ١٩/١٧٣ ، وترجمته في: ضيف ، شوقي ، العصر العباسي الأول: ٣٠١– ٣٠٥ .

٤٨. أبو دلامة ، زند بن الجون: ديوانه ، شرح وتحقيق إميل بديع يعقوب ، ط١ ، دار الجيل ، بيروت ،٧٥: ١٩٩٤ .

٤٩. غرنباوم ، غوستاف فون ، شعراء عباسيون: ١٥٤ .

٥٠. هو نفسه داود بن بكر.

٥١. غرنباوم ، غوستاف فون ، شعراء عباسيون: ١٣٢.

٥٢. هو سعيد بن سلم بن قتيبة بن مسلم أبو أمامه الباهلي البصري.ينظر ابن المعتز،عبد الله بن المتوكل: ١٨٠

٥٣. المرزباني ، أبو عبد الله محمد بن عمران: معجم الشعراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ،٤٠٧: ١٩٦٠ .

٥٤. المرزباني ، أبو عبد الله محمد بن عمران ، معجم الشعراء: ١٣٤ .

٥٥. هو أبو حفص الورّاق ، ينظر غرنباوم،غوساف فون،شعراء عباسيون: ١٣٥

٥٦. غرنباوم ، غوستاف فون ، شعراء عباسيون: ١٣١.

٥٧. المصدر نفسه: ١٣٦.

٥٨. المصدر نفسه: ١٥٣ .

٥٩. المصدر نفسه: ١٥٢ .

المصادر والمراجع:

١. الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين: الأغاني ، ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٧ .

٢. الألوسي ، محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، شرح وتصحيح ، محمد بهجت الأثري ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج١ ، د. ت .

٣. بشار بن برد، ديوانه: شرح وترتيب مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١٩٩٣

٤. البغدادي ، أحمد بن علي الخطيب: تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، ط دار الكتاب العربي ، بيروت ، د. ت .

٥. الجاحظ ، عمرو بن بحر: البخلاء، حقق نصه وعلق عليه طه الحاجري، ط٨ ، دار المعارف،مصر،د.ت.

٦. الجاحظ ، عمرو بن بحر: الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط١ ، مطبعة مصطفى البابي ، مصر: ١٩٣٨م .

٧. نور الدين، حسن جعفر: شعر التمرد في الأعصر العباسية ، ط١ ، دار رشاد برس ، بيروت: ٢٠٠٣م .

٨. خريس ، حسين: حركة الشعر العباسي في مجال التجديد بين أبي نواس ومعاصريه ، مؤسسة الرسالة ، د. ت .

٩. أبو دلامة ، زند بن الجون: ديوانه ، شرح وتحقيق إميل بديع يعقوب ، دار الجيل ، بيروت: ١٩٩٤م .

١٠. السيوطي ، جمال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٥٢م .

١١. ضيف ، شوقي: العصر العباسي الأول ، ط دار المعارف ، مصر ، ط٦ ، ١٩٩٦م .

١٢. أبو العتاهية ، ديوانه: تحقيق فيصل ، دار الملاح للطباعة والنشر ، دمشق ، ط ١: ١٩٦٤م.

١٣. ابن عبد ربه ، أبو عمر أحمد بن محمد: العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، ط ٢، مطبعة الاستقامة ، القاهرة: د. ت .

١٤. عطوان حسين ، الشعراء الصعاليك ، دار المعارف ، مصر .

١٥. غرنباوم ، غوستاف فون: شعراء عباسيون ، تحقيق محمد يوسف نجم واحسان عباس ، مكتبة دار الحياة ، بيروت: ١٩٥٩م .

١٦. المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد: الكامل ، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، الفجالة ، مصر ، ١٩٦٥ م.

١٧. المرزباني ، أبو عبد الله محمد بن عمران: معجم الشعراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية: ١٩٦٠م.

١٨. المرزباني ، أبو عبد الله محمد بن عمران: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، تحقيق علي البجاوي ، ط دار نهضة مصر ، القاهرة: ١٩٥٦ م.

١٩. ابن المعتز ، أبو العباس عبد الله بن محمد: طبقات الشعراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، ط دار المعارف ، مصر: ١٩٥٦ م.